مسألة الحب بين الدين والفلسفة عند الإمام الفيلسوف ابن حزم الظاهري

The issue of love between religion and philosophy when the imam philosopher Ibn Hazm virtual

د/ سعد عبد السلام [1]

[1] جامعة الجلفة، saadibnhazm@gmail.com

تاريخ الاستلام: 31 / 01/ 2018 **تاريخ القبول**: 14 / 06/ 2020

Abstract:

The phenomenon of the existence of love and love in the life of man; Although the interest of Islamic thinkers issues of love and love is old, but talk about such issues is still a little in our contemporary Islamic societies. What is important to us here is to follow the views of a prominent scholar of our distinguished scientists to deal with this subject, and although most of his ideas were suppressed and most of his views were obscured because most scholar striated his intellectual output as a fundamentalist jurist and modernist and writer, The "collar of the dove" finds the unthinkable of the deep and daring proposition of the issue of

المؤلف المرسل: سعد عبد السلام

البريد الالكتروني: saadibnhazm@gmail.com

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

love philosophically and philosophically; hence it was necessary to dig in the thought of Ibn Hazm virtual Andalusian to show his philosophical and philosophical vision of the phenomenon of love. The most surprising thing for researchers is the writing of jurists on the question of love, but it is strangethat love and study, the general feature of a group of jurists and Hanbalis, who have taken great care of human love, and studied an extensive study despite their violent attack on divine love. So whatdid the scholars of Ajla as the son of Hazm and Ibn al-Qayyim and Ghazali carry on writing in love?

It is a unique phenomenon worthy of registration, because these jurists, who were known to stand with the apparent religious text, and accused by their opponents of stalemate and atheism, embarked on this humanitarian field and filled him with research and wrote many books. It is no wonder that Islam has been interested in love and spoke in it, but that the mention of "love" in the Qur'an was mentioned ninety-three times to clarify its forms, dimensions and qualities. Therefore, one cannot accept the view that Islam is devoid of a theory of love. Hence, the scholars of Islam were interested in it, and they were fully aware of and deep understanding of its components, whether they were philosophers or literati, modernists, jurists, Sufis or poets, and they were more sympathetic and classed as theories. It was so that open his senses and himself to van in love and beauty, it is not a novelty then to see him interested in writing in the statement of what love, to highlight the truth and penetrated the depths, and access to the depths.

ملخص:

اهتم مفكرو الإسلام بمسائل الحب والعشق، ويَهمُّنا هنا تتبع آراء علمٍ بارز من علمائنا الأجلاء تناول هذا الموضوع، ومع أن جل أفكاره طُمِست ومعظم آرائه حُجِبت، إلّا أن القارئ لرسالته :"طوق الحمامة" يجد ما لا يمكن تصوره من الطرح العميق والجريء لمسألة الحب فقهيا وفلسفيا؛ ومن ثمة كان من الضروري الحفْرُ في فكر ابن حزم الظاهري الأندلسي لبيان رؤيته الفلسفية والفقهية لظاهرة الحب. فكان من ذلك أن تفتّحت حواسّه ونفسُه على أفانين الحب والجمال، فليس بدعا بعد ذلك أن نراه مهتما بالكتابة في بيان ماهية الحب، لإبراز حقيقته وسبر غوره، والولوج إلى أعماقه.

مقدّمة:

ظاهرة وجدانية وعاطفة إنسانية نبيلة، شغلت ولا يزال وقوعها يشغل باستمرار حياة الأفراد، إنها ظاهرة وجود الحب والعشق في حياة الإنسان؛ ومع أن اهتمام مفكري الإسلام بمسائل الحب والعشق قديم، إلّا أن الحديث عن مثل هذه القضايا لا يزال قليلًا في مجتمعاتنا الإسلَامية المعاصرة.

والذي يَهمُّنا هنا هو تتبع آراء علمٍ بارز من علمائنا الأجلاء تناول هذا الموضوع، ومع أن جل أفكاره طُمِست و معظم آرائه حُجِبت، لأن معظم الدارسين عالج نتاجه الفكري على أنه فقيه أصولي ومحَدّث وأديب، ولا شأن له بمثل هذه القضايا؛ إلّا أن القارئ لرسالته :"طوق الحمامة" يجد ما لا يمكن تصوره من الطرح العميق والجريء لمسألة الحب فقهيا وفلسفيا؛ ومن ثمة كان من الضروري الحفْرُ في فكر ابن حزم الظاهري الأندلسي لبيان رؤيته الفلسفية والفقهية لظاهرة الحب.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

ولعلنا نطرح بعض التساؤلات الضرورية: من أين استمد ابن حزم نظريته في الحب والجمال ؟ وكيف استطاع التوفيق بين اتجاهه السلفي الظاهري المتوقّف على النصوص ؟ وبين دراسته لمسألة الحب، المبنية على الإستبطان الذاتي والتأمل العقلي الفلسفي؟ أليس شيئا عُجابا أنْ يقوم ابن حزم وهو المُتّهم بِيُبْس الرأس والجمود على النصّ، بالكتابة في فلسفة الحب والعشق والغرام والجمال ؟ ثم ما هو الحب في نظره، وما تعليلُه لهذه الظاهرة الوجدانية ؟.

إن أشد ما أثار دهشة واستغراب الباحثين هو كتابة الفقهاء في مسألة الحب، بل إن الأمر العجيب هو أن يكون الحب ودراسته، السمة العامة لمجموعة من الفقهاء الظاهرية والحنابلة، الذين عنوا عناية كبيرة بالحب البشري، ودرسوه دراسة موسعة رغم هجومهم العنيف على الحب الإلهي. فما الذي حمل فقهاء أجلّاء كابن حزم وابن القيم والغزالي على الكتابة في الحب ؟ ومن كان يظن أن حيَواتهم كانت فارغة من أي لون من ألوان الوجد والحب ؟. إنها لظاهرة فريدة جديرة بالتسجيل، لأن هؤلاء الفقهاء الذين عُرِف عنهم الوقوف مع ظاهر النص الديني، واتُّهِموا من قبل خصومهم بالجمود والتحجّر والتزمّت، إنطلقوا في هذا الميدان الإنساني وأشبعوه بحْثاً وكتبوا فيه الكتب الكثيرة.[1] ولا عجب في ذلك، فالإسلام قد اهتم بالحب وتكلّم فيه، بل إنّ ذِكْر "الحب" في القرآن ورد ثلَاثا وتسعين مرة لتوضيح أشكاله وأبعاده وكيفياته؛ لذلك لا يمكن قبولُ رأيِ من زعمَ أنّ الإسلام يخلو من نظرية في الحب.[2] ومن ثمَّة اهتم مفكرو الإسلام به، وكانوا على وعي تامّ وفهم عميق بجزئياته، سواء كانوا فلاسفة أو أدباء، محدّثين أو فقهاء، متصوفة أو شعراء، فأكثروا فيه التآليف وصنّفوا فيه النظريات[3] فالحب أشكال وضروب، أفضلها المحبة في الله، كمحبة الله عباده ومحبّة العباد لله، أو محبّة الناس بعضهم البعض؛ لاتفاق في المذاهب مثلا، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابّين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره؛ ومحبة بلوغ اللذة،

ومحبة العشق الذي لا علة له إلا اتصال النفوس، وابن حزم يؤكد على أن كل هذه الأشكال من الحب تنتهي بانتهاء الغرض منها، إلا محبة العشق الصحيح فهي لا تنتهي إلا بالفناء والموت. ولذلك فإن كتابة ابن حزم في الحبّ، تميّزت بكونها كتابةَ الفيلسوف والمحلل النفسي الذي يؤثر الإستقصاء والبحث، معتمدا الملاحظة والإستقراء، ليستنبط الأحكام والقواعد العلمية.

عاش أبو محمد الشهير بابن حزم بين سنتي: (384هـ/994م- 456هـ/ 1064م) بالأندلس ذات الطبيعة الفاتنة الخلّابة، والأندلس آنذاك « مرتع الجمال العجيب في طبيعته وأهله، جمالٌ خاصّ أثّر في رجالها فلطّف طباعهم، وطبع الأندلس بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به، وابن حزم منذ نعومة أظفاره صافي الذهن مرهف الحس، رقيق مشوب بالعاطفة، يزيّن ذلك كله تهذيب أرستقراطي متوازن.» [4] لذلك لا نعجب أنْ يكْلَف أبو محمد بها كلفاً شديدا إلى درجة الافتتان بجمالها ومباهجها، هذا إضافة إلى البيئة النسوية التي نشأ في كنفها، فعملت على إرهاف حسّه وإشعال وجدانه، فكان من ذلك أن تفتّحت حواسّه ونفسُه على أفانين الحب والجمال، فليس بدعا بعد ذلك أن نراه مهتما بالكتابة في بيان ماهية الحب، لإبراز حقيقته وسبر غوره، والولوج إلى أعماقه.

- كتاب: "طوق الحمامة" تصوير سامق للحب والعشق والجمال.

« إنّ من يقرأ كتاب ابن حزم:" طوق الحمامة" يجد أن الحب قد شغل ابن حزم في حياته كلها، كما شغله الفقه والحديث والتفسير والكلام؛ ويتأكد أن الحب لم يشغل ابن حزم وحده، إنما يبدو أنه كان يشغل الناس جميعا في إسبانيا المسلمة آنذاك.» [5] ولعل تسميته لرسالته تلك بـ:"طوق الحمامة" له دلَالَات عديدة، وإلّا لماذا اختار ذاك العنوان؟ [6]

كتب ابن حزم: "طوق الحمامة في الألفة والألاف" وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، لكن أفكاره كانت من النضج بحيث إنها لم تختلف ولم تتغير عن أفكاره عند بلوغه السبعين، وكتب كتابه الآخر الشهير في نفس الموضوع وهو:

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

"الأخلاق والسير في مداواة النفوس"؛ وتعكس هذه النتيجة حقيقة هامة وهي أن هذا الرجل، تميز بالضبط والدقة والموضوعية مذ كان يافعا.

لذلك يعتبر كتابه: "طوق الحمامة" أروع ما كتب عن الحب في العصر الوسيط، فقد تتبّع أطواره وحلل عناصره، وجمع فيه بين الفكرة المفلسفة والواقع التاريخي، وواجه أدق قضاياه في وضوح وصراحة. وصاحب الكتاب رجل مجدّد جهبذ موسعيّ، فهو قلّما يأتي بأخبار وروايات حملتها إليه الكتب القديمة، وإنما هو يقدم في كتابه صورة واقعية لحياة الطبقة المثقفة والراقية في المجتمع القرطبي في القرن الرابع للهجرة، من خلال شخصيات ذكرها بأسمائها من خلفاء ووزراء وفقهاء وأدباء، وغيرهم ممن كانت الروح المثالية هي منهجهم في حياتهم العاطفية.

وقد قسّم ابن حزم كتابه هذا إلى ثلاثين باباً: في أصول الحب، وفي أعراضه وصفاته المحمودة والمذمومة؛ وفي الآفات الداخلة على الحب. والحب عنده: أوّله هزل وآخره جدّ، دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وهو ليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل يقلبها كيف يشاء.

وإن الدارس لهذا الكتاب ليلمح ذلك بوضوح في ثناياه، حيث الإئتلاف والتوافق بين الجانبين المتداخلين والمتكاملين في الآن ذاته: الحب والجمال. فطوق الحمامة كناية عن الهيام في أجواء الروح السامية، بتذوق واستلهام الجمال الذي هو مثار الحب، وكأنّي بابن حزم يقول: هذا كتاب يتحدث عن العلاقة السرية الحميمِيّة بين الحب والجمال، بعيدا عن الأوضار الأرضية، والأقذار المادية ؛ أليس هو القائل:

أمن عالم الأملاك أنت أم إنسي*** أبِن لي فقد أزرى بتمييزي العيّ
أرى هيئة إنسية غير أنه*** إذا أُعمل التفكير فالجرم علوي

تبارك من سوّى مذاهب خلقه *** على أنك النور الأنيق الطبيعي
ولاشك عندي أنك الروح ساقه*** إلينا مثال في النفوس اتصالي.[7]

ومع أن ابن حزم ظاهريّ المذهب فقهيا وفكريا ، متشبث بحرفية النصوص، إلّا أنه لم يشأ أن يدع ظاهريته حتى في مسألة الحب والجمال. أليس هو القائل:

وذي عذل فيمن سباني حُسْنه***يطيل ملامي في الهوى ويقول:
أمِنْ أجل وجهٍ لاحَ لم تر غيره*** ولم تدر كيف الجسم: أنت عليل ؟؟
فقلت له : أسرفت في اللّوم فاتّئد*** فعندي ردٌّ لو أشاء طويل
ألم تر أنني ظاهري وأنني *** على ما أرى حتى يقوم دليل.[8]

فليس بدعا أن نراه مهتماً بدراسة أحوال العاشقين وأخبار المحبين، وإن كان فيلسوفنا يحدثنا عن صلة الحب بالشهوة ، فإنه يخشى أن يقع في ظن البعض أن الحديث عن الحب، هو حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة؛ لذلك نجده أحرص ما يكون على موضوع الطهر والعفاف، والتأكيد على جلال الحب وقداسته؛ بحرصه على فهم دوافع الناس الشعورية واللاشعورية، بل إنه يصور لقارئه قبح المعصية وحلاوة الطاعة، داعيا إياه إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة. والمطالع لكتابه:" طوق الحمامة" يجد أنه من نفائس أمهات كتب التراث الإسلامي، بل ومن ذخائره البديعة في علم النفس، ومصدراً هاما في موضوع الحب فقها وفلسفة، ولأجل ذلك تُرجم إلى لغات عالمية عديدة.[9]

ولا تعجبنّ أخي القارئ حين تجد أن ابن حزم يصنَّف في عداد علماء النفس، لأنك لو قرأت بعين الإعتبار والتمحيص رسالته: "طوق الحمامة في الألفة والأَلّاف" لمَا تردّدَت في إدراج تلك الرسالة ضمن كتب علم النفس.[10] حيث يسبر فيها أغوار النفس الإنسانية، ويفكّ أسرار الحب ومعانيه، وما ذلك إلّا لأنه « قد نهل من عالم الحب وعَلَّ، وشرب كأسه حتى الثمالة، وبَلاَ من أحواله وأعراضه وأحزانه ومفارحه شيئا كثيرا، حتى لقد تفرّد في المشرق والمغرب بالإيغال فيه

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

والغوص على أسراره وأكاد أقول إنه إمام مجتهد في الحب، كما هو إمام مجتهد في الدين.»[11]

فقد اجتهد ابن حزم في التعريف بالحب، وبيان عوارضه وأسبابه وأوصافه، وأنواعه ومظاهره، فظهر بمظهر الخبير العارف، والمحلل النفسي لنزعات وخلجات وأسرار النفس، مصوّراً لنا حبه الشخصي وبعضا من تجاربه، واصفا تلك الحدّة الرومنطقية التي علِقت به، منذ أن تهاوى أمام ناظريْه بعض من يحبّهم كوالده ومدينته وزوجته "نعم".[12] ذلك الوصف الذي ذكره المستشرق:" دوزي Dozzy" بقوله: إن وصْفَ ابن حزم لحبّه في ترجمته لنفسه، يكشف لنا في نفسانية هذا البطل عن إحساس رقيق، خال من النزعات الجسمانية، ويمكننا أن نعتبره أنموذجا استثنائيا للحب الروحاني العفيف على غرار علماء النفس الألمان، الذين ينزعون في حبّهم منزعاً أفلاطونيا.

- الحب: مفهومه وكيفية وقوعه.

ذهب ابن حزم إلى أن اختلاف الأقوال في ضبط ماهية الحب « وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا، والذي أذهبُ إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أُكَرٌ مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها.»[13] مستدلّا بقوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[14] وهذا الاتصال في نظره يقوم على التجانس القائم بين هذه النفوس والأرواح، فيكون بينها الإئتلاف والتحابب، وحيث يكون الإتفاق والتشاكل والميل بين النفوس ينتج عنه الحب.

وهذا التعريف الذي ذكره أبو محمد مردّه إلى إيمانه بأن الله خلق الأنفس، فكان بين بعضها بالطبيعة تشاكلٌ واتّفاق وانجذاب، وكلما كثر التجانس بينها، تأكدت المودة وزاد الحب. «ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشاركها في المجاورة، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد... فانظر هذا ترَهُ عيانا.» [15] ومما يؤكد ذلك في نظره هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:﴿ الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَة مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفْ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفْ﴾ [16] ولعل هذا التعريف الذي اعتمده أبو محمد من القول باتصال أجزاء النفوس المعشوقة، واشتياق هذه الأجزاء إلى بعضها أو إلى نصفها الآخر، فإذا عثر عليه تمت له المحبة والسعادة، يبين لنا سر التمازج والتباين بين الناس، والذي ينبني عنه حتما الإتصال والإنفصال، حيث أن الشكل يستدعي دائما من هو على شاكلته، والمثيل إلى مثيله يقترب. «وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والإنفصال، والشكل دأبًا– إنما– يستدعي شكله، والمِثْل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد... كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها.» [17]

لقد أبدع ابن حزم في بيان فلسفة الحب المتأصل عن تآلف الأرواح، محتجّا بالحديث النبوي الشريف، مؤكدا على أن التعارف قديم، وأن التوافق أو التنافر بين النفوس أزلي سابق، حيث يشعر به الأفراد اتجاه غيرهم ولو بدون سبب واضح ملموس، فقد تُحبّ شخصا لغير سبب، وتستثقل آخر وتنفر منه ولو لم تره، وما ذاك إلّا لأن الأرواح تلاقت في الملكوت الأعلى من قبل، فحدث لها في هذا العالم الإنجذاب إلى قرنائها، أي إذا لقي الروح قسِيمه أو شقيقه أحبّه لاتفاق القسمين وازدواج الجزأين، فيكون بذلك الإلتحام والتجانس، مستدلّا بالآية السابقة الذكر. ويدلنا ذلك أيضا على أن الحب لن يوجد بين أي طرفين في هذا العالم، إلّا إذا كان قد وجد هذا التحابُب سابقا، أي قبل حلول الروح في

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

الجسد، ولن يكون بينهما أي انجذاب أو تحابب واشتهاء للملاقاة، إلّا إذا كان من قبل كذلك. « ولكن نفس الذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلمْ تحسّ بالجزء الذي كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلّصت لاستويا في الاتصال والمحبة... كالنار في الحجر لا تبرز على قوة النار في الاتصال إلا بعد القدح... وإلّا فهي كامنة في حجرها...»[18]

ومراده بذلك أنه لكي نفهم مسألة الحب، يجب أن نكون على معرفة ووعي بماهية النفس التي خلقها الله عزوجل، وذلك قبل أن تَحُلَّ بالجسد، فالتعارف والتآلف أو التنافر والتباعد كان موجوداً أزلًا في العالم العلوي، وهو يتحقق الآن أيضا، فكلّ نصف يتوق إلى النصف الآخر الذي انفصل عنه من قبل، فإذا التقيَا تعانقا كأنما يطلبان الإتحاد، فإذا كان النصفان الملتقيان ذكرا وأنثى، نتج عن تلاقيهما التناسل، فوجدا الإكتفاء في الإتصال، وإذا حدث التجاذب بين ذكر وآخر مثله، نشأت بينهما عاطفة قوية تمثلت في الصحبة والصداقة، لأن روح لكل منهما تتوق للأخرى توقاناً لا تستطيع أن تُفصح عنه؛ وعلى هذا فليس الحب سوى محاولة لاستعادة الوحدة القديمة المتجددة.[19]

ولأجل ذلك عبّر ابن حزم عن ذلك الغموض الذي يكتنف ماهية الحب بقوله:« الحب - أعزك الله-... دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة.»[20] ومهما يكن الأمر فقد جاء ابن حزم بتحليل نفسي وخلقي للحب... ولم يطلّ على الحب من خلال تأملاته كما صنع أفلاطون، وإنما نظر إليه من خلال تجاربه ومشاهداته وصوره؛ وكتابُه: "طوق الحمامة" ينطق بذلك، إنه نظرية في الحب والجمال... والمتعة الجمالية عنده ليست شيئا مشتركاً بين الناس جميعاً، بل هي خبرة ذاتية وتجربة نفسية خاصة لا يمكن تفسيرها إلا بذاتها.[21] وهذا ما نجده متجسدا من خلال بيانه لكيفية وقوع الحب، « وإني لأخبرُ عنّي أني

ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية... وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها...».[22]

إن هذا الحب، إنما يكون بانجذاب نفس المحب إلى محبوبه، كجاذبية الأرض للأجسام أو المغنطيس للحديد، وحديثه كمحلل نفسي تتجلى لنا من خلال بيانه لحالة المحبّ، إذ أن خيال المحب يُسْقطُ على من يحبُّ مِن صور الإستحسان والكمال ما يجعل شخصية المحبوب كاملة تامّة الحسن. «وأما العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أنّ النفس تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبّتت فيه، فان ميّزت وراءها شيئا من أشكالها اتصلت وصحّت المحبة الحقيقية... وإن للصور لتوصيلا عجيبا بين أجزاء النفوس النائية.» [23] وإنه لمهمٌّ هنا أن يبرز هذا التحليل الفلسفي العقلي عند ابن حزم، وهو الظاهري النزعة، المتمسك بحرفية النصوص.

فالحب تقارب بين الأنفس، ناتج عن سعي الشبيه وراء شبيهه، لمَا يرى أو يتصور أو يتخيل فيه من حسن وجمال، أو لما يصبغه من صور الكمال عليه.وهذا التحليل الذي يعطيه لنا ابن حزم، يذكرنا بمحاورة أفلاطون: "لوفيدر LE PHEDRE" وفيها أن النفس جميلة تشتاق بشغف إلى كل ما هو جميل، وتميل نحو الأشكال الكاملة فيقع الحب بمعناه الحقيقي، بل إنه عندما يتحدث عن الإنجذاب القائم بين المحب والمحبوب، وأنه يقوم على أساس الإستحسان. والمتحابان عند ابن حزم لابد أن يكون بينهما تشابه واتفاق في الصفات الطبيعية، مستدلا بالآيات والأحاديث، ومنها قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الشيخان: البخاري ومسلم:« الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.» [24]

فليس بغريب على عالم مثقّف كابن حزم أن يتعمق في أغوار النفس البشرية، ويكشف عن دقائقها وقد سبقه إلى الحديث عنها: القرآن والحديث النبوي، وأئمة وعلماء الإسلام. وكما أن الحب يقع بالنظر، فإنه قد يقع بالوصف

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

دون المعاينة، أي أن الشخص قد يسمع بصفات وأخبار غيره، مما يحبّبه إلى نفسه وإن لم يره. « وهذا أمر يُترقى منه إلى جميع الحب... فإن للحكايات ونعْت المحاسن ورصْف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً وأن تسمع نغمتها من وراء جدار، فيكون سببا للحب واشتغال البال، وهذا كله قد وقع لغير ما واحد.» [25] لكن ابن حزم مع ذلك لا يحبذ هذه الكيفية وهذه الصورة من الحب، لأن الحب تبعا لذلك سينهار سريعا في نظره، لكونه مبنياً على أساس غير متين، بل إن التوهم الخادع هنا هو الذي يصّور المحبوب في أكمل صورة، حتى إذا تمت المعاينة، بطل الأمر بالكلية غالبا، وإن كان يتأكد أحيانا قليلة جداً. لكن وقوعه إنمّا يتم بنظر الشخص لمن يحبه عند رؤيته، فتستحسن النفس صورة المعشوق الذي يشاكلها؛ وكثيراً مايكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة، وهو أن يعشق المرء صورة المحبوب، فالتعلق بالآخر هنا سببه النظر. والعين هنا هي باب النفس لنشوء المحبة، وهي المنقبة عن سرائرها، والمعبرة عن كوامنها، والمغْربة عن بواطنها، وفي ذلك يقول أبو محمد:

عيْني جنت في فؤادي لوعة الفكر*** فأرسل الدمع مقتصا من البصر. [26]

فالعين هي المعربة عن بواطن النفس، وهو يرى أن النظر هو أول مداخل القلب، فليس بمستغرب أن تكون النظرة الأولى هي بداية ونقطة انطلاق الحب فينشأ الحب بالقلب ويقوى بعدئذ بالمعاينة. فالصورة الحسنة هي أول مراحل الحب، لأن النفس حسنة تعجب بكل ما هو حسن وجميل، وهذه الإشارة من ابن حزم جعلت المستشرق "دوزي Dozzy" يؤكد على أن نفسية ابن حزم من خلال "طوق الحمامة " تشير إلى تعّففه، وأنّ ذلك راجع في نظر دوزي [27] إلى عرق ابن حزم الاسباني، وجذور الديانة المسيحية المتجذرة فيه، الكامنة في أعماق نفسه، على الرغم من إسلامه، وكأنّ الإسلام لا يدعو إلى الحسن والجمال والعفة.

- أسباب الحب وأعراضُه

« شاء الله لابن حزم أن يكمُل بالحب حيث نقص كثيرون... ولقد أحب ابن حزم ولا مناص، والحب السامي اضطراري لا اختياري، يبعثه الجمال في القلب الكامل والنفس الزكية...» [28]

وقد أشار أبو محمد إلى وقوعه في الحب:« وعني أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر... وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت.» [29]

فلا قيمة إذن للحب بدون جمال، فالحب في بعده الذوقي الجمالي الناتج عن تلك الجاذبية الحيوية، التي أسمى تعيُّناتها الشوق الجنسي، والعشق المتجلي في الجانب الذي تمارسه الأعضاء، وإنما هو بما تَشِعُّ به النفس من حيوية، وبما تضفيه من فاعلية وجدانية على هذه المحبة. « النفس تولع بكل شيء حسن... فإن ميّزت وراءها شيئا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية وإن لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة.» [30]

ولذا فإن للجمال عند ابن حزم دورا كبيراً في ميلاد الحب وتقوية أواصره، وفي التأكيد على أهمية الدور الذي يلعبه الحب في صقل النفس، لأنه هو الذي يخلع على وجودنا كل ما له معنى، بل إن الحب وحده أهم شيء في حياته. فالحسن والجمال سواء كان ماديا أو معنويا من أبرز الأسباب الداعية للتقارب، وتعلق نفوس المحبين بعضها ببعض.

لكنه مع ذلك لا يرى بعد التوافق والتشابه في المزاج شروطاً أخرى لتبادل الحب، يقول أبو محمد رحمه الله: «... ولكن الحسن ليس علة دائمة أو سببا أصليا للحب، لأنك قد تجد من يستحسن الأنقص والأدنى والأقبح، ولو كان علةُ الحُسْن الصورة الجسدية لوجَبَ ألّا يستحسنَ الأنقصُ في الصورة، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيداً لقلبه عنه... فعلِمنا أنه شيء في ذات النفس...» [31] ومراده بذات النفس، أن النفوس مجبولة ومفطورة على الحب، بل

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

على حبّ أشخاص أو أشياء بعينها دون غيرها، وهو حين يتحدث عن الحب، فإنه لا يتكلم عن فعل يمكن التحكم فيه؛ بل إنه داء عياءٌ لا يملك المرء طريقة لتصريفه أو الفرار من براثنه. « واعلم - أعزك الله - أن للحب حكما على النفوس ماضيا وسلطانا قاضيا، وأمراً لا يخالف، وحدّاً لا يعصى، ومُلكا لا يتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا يُردّ...»[32] فليس بإرادة المحب ولا باختياره أن يحب، بل هو أمر خارج عن إرادته ومشيئته، ولا حيلة له فيه، وما ذاك إلا لأنَّ الحب مسألة دينية ميتافيزيقية يعيشها المرء على جبلّته. فما الذي يستطيع أن يصنعه، وهو مقهور على الخضوع لهواه بتلك الإرادة الخفية، التي هي إرادة القدر الذي يتصرف في القلوب بلا إشفاق عليها ؟ وهل يملك لنفسه حيلة أو يجد سبيلا للفكاك من ذلك الأسر، أسْر حب بعينه ؟.

إننا لا يجب أن نكذب على أنفسنا أو أن نخادع الناس بادّعائنا خلاف هذه الحقيقة، ولا ينبغي أن نكون من المغالِطين أو المغالَطين في هذه المسالة. لأن الوقوع في براثن الحب، يحدث غالبا بلا سبب معقول منطقي، فترى شخصان يتحابان دون سبب ظاهر، ويكْلف أحدهما بالآخر لغير ما علة، ويأنس الواحد منهما بصاحبه دون أدنى مبرر أو مسوّغ . ورغم تأكيد ابن حزم المتكرر على دور الإرادة الشخصية للفرد في اختيار من يحب، واختيار طريق للوصول إليه، إلا أنه يرى في العشق قضاءً وقدرا. « واعلم... أن للحبّ حكماً على النفوس ماضياً وسلطاناً قاضياً، وأمراً لا يخالف، وحدّاً لا يعصى، ونفاذاً لا يرَدّ...».[33]

فابن حزم ينظر إلى هذا الأمر على أنه شكل من أشكال الجَبر، فلا يملك أي امرئ زمام قلبه في حب من يشاء، والجبر يتحقق في وقوع الحب لا في استمراره؛ والصفات الطبيعية التي يتفق فيها الطرفان المتحابان، هي سبب حدوث وتأكد الحب عنده، مستدلّا على ذلك بما ورد من أحاديث نبوية، وبما رُوي عن بقراط وأفلاطون وغيرهما. ولذا فإن: «استحسان الحسَن وتمكُّن الحب، فطبعٌ لا

يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مُقلِّبها... وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة.» [34] بل إن أبا محمد في نظر البعض، قد ذهب إلى جواز عشق الأجنبية، مستدلًا بقول عمر بن الخطاب، للرجل الذي قال له: إني رأيت امرأة فعشقتها، فقال له عمر: ذلك مما لا تملك؛ وقد ردّ عليه ابن القيم ردّا شديداً في هذه المسألة. [35]

كما أفاض أبو محمد الحديث عن أعراض وعلامات الحب الكثيرة، مثل كثرة البكاء وفرط الغيرة وسوء الظن، واصفرار الوجه، ومحاولة كتمان الحب رغم الاضطراب الذي يبدو على وجه المحب، مع اللوعة المنبثقة من صبابة العاشقين، والتي تشتعل في جوانح المحب؛ ثم محاولة المحب تتبّع وتقصي أخبار المحبّين السابقين، ومعرفة ما حدث لهم، ونحو ذلك من العلامات التي تكون قبل وأثناء استعار لهيب الحب، وتأجّج ناره، وتوقّد شعلته واستطارة لهبه؛ فيؤدي ذلك إلى تقلبات حادة في مزاج المحب، فتجده حزينًا مكتئبًا متشائمًا حينا، وضاحكًا مستبشرا ومنتشيًا حينًا آخر، ولعل ذلك ما يعرف بالهوس الاكتئابي ثنائي القطبية؛ وقد أرجع البروفسور: بيتر غيبسون أمراض الجهاز الهضمي، وأعراض مرض القولون العصبي إلى تغيرات في نسبة السيروتون، وكل ذلك مماثل لما ذكره ابن حزم.

حيث تتضح أهمية هذه المادة وانتظام عملها في جسد الإنسان، وأعراض نقصها وزيادتها، وتغير نسبتها في الدم عمومًا، تشبه إن لم تكن هي نفسها تلك الأعراض والعلامات التي تصيب المحب، والتي توصِل صاحبه إلى نحول الجسم بلا وجع، وأحيانا إلى المرض والوسوسة، بل وحتى الموت أحياناً. [36]

ولعل ابن حزم أول من تطرق إلى ذكرها بالتقصي، وأفاض في تعدادها، ووصفها وبيانها بأدق وأوضح وأيسر وأعذب الألفاظ والعبارات، وحاول محاولة جادة ومنظمة - تكاد تكون علمية-. كما تعرض لذكر العلامات التي تصاحب المحبين.« وللحب علامات يقفوها الفطن ويهتدي إليها الذكي، فأوّلها إدمان النظر...

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

ويتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال، وفيها الإقبال بالحديث، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه، والإنصات لحديثه إذا حدث وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، وإتباعه كيف سلك... والإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه... والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته، والتباطؤ في المشي عند القيام عنه... ومنها بهتٌ يقع، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأة... »[37]

ويستمر ابن حزم الذي توصل إلى كيمياء الغرام قبل ألف عام، في عرض تلك العلامات التي يكون بعضها قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه، وبعضها بعد استطارة لهبه. «... وأن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه، مما كان يشح به قبل ذلك ليبدي محاسنه ويرغّب في نفسه، فكم من بخيل جاد، وجبان تشجّع، وغليظ الطبع تظرّف، وجاهل تأدّب، وذي سنّ تفتّى، وناسك تفتك، ومصون تهتّك.»[38].

ومن علامات المحب: الوجوم والإطراق وشدة الانغلاق، فبينما هو طلق الوجه خفيف الحركات، صار منطبقًا متثاقلا حائر النفس جامد الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال؛ وحب الوحدة والأنس بالانفراد والسهر؛ وترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته، حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته، ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه، وحفظه لكل ما يقع منه، وبحثه عن أخباره وتتبعه لحركاته.

ومن العلامات الغريبة التي ذكرها، علامات متضادة، والأضداد أنداد، وبضدها تتبين الأشياء كما قيل. فتجد المتحابين إذا تكافيا في المحبة، وتأكدت بينهما تأكدًا شديدًا، كثر تهاجرهما بغير معنى، وتضادهما في القول عمدًا، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه، فيتأولها على غير معناها؛ ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه، فإذا بلغا

الغاية من الاختلاف، لا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل صحبة، وأهدرت المعاتبة وسقط الخلاف، وانصرفا في ذلك الحين إلى المضاحكة والملاعبة، هكذا في الوقت الواحد مرارًا، فكل هذا عن تجربة صادقة وخبرة صحيحة.[39]

إضافة إلى إشارته إلى بعض الظواهر النفسية كفكرة التثبيت (FIXATION) والتي هي عبارة عن ارتباط المرء في صباه بشخص أو بشيء أو بفكرة ما ارتباطا وثيقا، ولا يزول عنه هذا الإرتباط حتى بعد انتقاله من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج الجسمي والبلوغ العاطفي النفسي، وهو ما أكده علماء التحليل النفسي حديثاً.[40] يقول أبو محمد:« وعنّي أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر... وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت.»[41] إذْ أثبت أن كثيرًا من صور الحب الأول تختفي في العقل الباطن "اللاشعور"، وهو ما اصطلح عليه عند مدرسة التحليل النفسي بـ:"رد الفعل العكسي"REACTION FORMATION.

كما أفاض ابن حزم في بيان علامات وأعراض الحب التي يمكن قبولها كما هي، لكونها ترسم لنا إطارا محددا ودقيقا لمسألة الحب، وإن كانت هذه الأعراض والعلامات ليست دائمة الظهور وبنفس القوة والوضوح عند جميع الناس طيلة مراحل حدوث الحب، سواء في بداياته أو في أوجّه، أو حتى عند خفوته تدريجيًا ليصل إلى نهاياته؛ إلا أنها غالبًا ما تحدث للمتحابين بصمت، أو ما يسمى بالحب الصامت، والذي قد يكون أغزر وأشد تأثيرًا في النفس على المدى الطويل؛ بل إنها في نظري شرط لازم لمن يعيش أي قصة حب، بل ويمكن اعتماد الأعراض التي ذكرها ابن حزم كأساس لصحة حدوث أي علاقة حب، ولنتأمل تصويره للحب في بدايته ونهايته وكأنما يعايشه في واقعه.« وانظر إلى تصويره آخرةَ الحب مع غرور المرء بأوّله: كمغترّ بضحضاح قريب *** فزَلّ فغاب في عمر المدود.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

تجد أنه تصوير أوضح من المحسوس، ومجاز أصدق من الحقيقة، مع تلخيص بليغ لتاريخ الحب من جميع نواحيه وما أدركتُ قطّ فهْماً أعمق في بيان مزالق الحب من هذا...»[42]

ومع أن« المحبة كلها جنس واحد، ورسمُها أنها الرغبة في المحبوب وكراهة مُنافرته، والرغبة في المقارضة منه بالمحبة.»[43] إلا أنها أنواع وأشكال مختلفة ومتنوعة، تختلف باختلاف الأغراض والأطماع، وبذلك تتعدد وجوه المحبة مثل المحبة لله عز وجل وفيه، ومحبة الرجل لأبنائه وقرابته وأصدقائه وامرأته، ومحبة الألفة والبر والتصاحب.[44]

كما يمكننا نشير هنا إلى أن ابن حزم ممّن يؤمن بالمطاولة في الحب، أي أنه لا يقع دفعة واحدة ومن أول وهلة. فهنا تتضح العقلية السيكلوجية لابن حزم عند ربطه العاطفة بالزمان وبتعدد التجارب، فهو يرى أن العاطفة البطيئة التي تولّدها المعاشرة والتعامل، أبقى من هذا العشق السريع الذي يراه أقرب إلى الشهوة منه إلى الحب، كما نجده يرفض فكرة التعلّق بشخصين في آن واحد ويراها رغبة حسية أكثر منها حاجة وجدانية راقية. .« وإني لأطيل العجب مِن كل مَن يدّعي أنه يحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدّقه ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة... وما لصق بأحشائي حبٌّ قطّ إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل.»[45]

فابن حزم يتعجب من كل من يدّعي أنه يحب من نظرة واحدة ولا يكاد يصدقه، ولا يجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة، لأن الحب لا يلتصق بالأحشاء إلا مع الزمن الطويل. ويؤكد هذه المعاني مرة أخرى حينما يؤكد على أن من أحب من نظرة واحدة ومن لمحة خاطرة، فهو دليل على قلة الصبر، ومخبر بسرعة السلو وشاهد على الملل، وهكذا في جميع الأشياء، أسرعها نموّا أسرعها فناءً وأبطؤها نفاذاً.

- إيجابيات الحب وربطه بالاستقرار النفسي

«فكم من بخيل جاد وقطوبٍ تطلّقْ، وجبانٍ تشجّعْ، وغليظ الطبع تظرف، وجاهل تأدب... وذي سنّ تفتىّ، وناسك تفتّك...»[46] هكذا ينطوي الحب عند أبي محمد على قيم إيجابية عديدة خاصة فيما يتعلق بالأخلاق، حيث أن المحبة تولّد الوفاء والصبر والكرم، وتفجر طاقة الإنسان فتحرك فاعليته للإبداع، وترفع من قيمته الإنسانية، وتطور جانبه الروحي، وتبدّل السلوكيات والسجايا الشائنة إلى أفعال حسنة خيرة، فيصير الجبان شجاعاً والبخيل كريماً والجاهل متأدباً.« ومن عجيب ما يقع في الحب أن يكون المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القيادة... فما هو إلا أن يتنسّم نسيم الحب ويتورط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة لينا، والصعوبة سهالة... فترى المحب حينئذ يكتم حزنه ويكظم أسفه.»[47] ولهذا فإن أفضل نتيجة يراها أبو محمد مناسبة للحب هي الزواج، فالحب عنده وسيلة للزواج والسعادة، بل وهي غاية أيضا، ولهذا لم يستطع ابن حزم إخراج الحب عن إطاره الديني.[48]

والواقع أن الحب عنده عمل تربوي أخلاقي، وليس أمرًا هزلاً أو قبيحا. «الحب -أعزّك الله- أوّله هزل وآخره جِدّ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكَرٍ في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثيرٌ...»[49]

وقد امتاز ابن حزم بالحرص على كرامة الحب والإشادة بالعفاف، فهو عنده شريعة وجدانية وليس عبثَ مراهقين أو لهو غلمان، فأفصح عن سرائره تصريح الواثق الآمن، ولم يلمّح بتلميح المريب الهيوب، ولم يتحرج أو يتهيب، رادا على من ينكر الحديث عنه بأن ذلك الإنكار تنسك أعجمي، وما كان الإسلام بالدين المترهب، وإنما هو دين الدعوة إلى الشعور بما في الوجود من أطايب الجمال

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

بنفوس سليمة جميلة. ولذا فليس بمستغرب من «إمام كابن حزم أن يملكه الجمال ويأسره، فما كان رجال الشريعة يوماً من الدهر غُلْف القلوب، ولا عُمْي العيون ولا متبلّدي الإحساس، بل إن ثقافتهم بطبيعتها تهديهم إلى معجزات الله في الجمال، وتحدوهم على تقديرها والتمتع بنعمها وشكر المبدع في صنعها.»[50]

ولهذا نجده يقيم النكير على الذين يكتمون الحب تصاونا، ويدّعون أنه غير جائز في الشريعة، وما ذاك إلا لأن الحب عنده اضطراري لا اختياري، فهو من قدر لله. حيث يردّ قائلا على مَنِ اتّهمه من خصومه بالإنمياع لكتابته في هذا الموضوع :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى*** وسيان عندي فيك لاحٍ وساكتُ
يقولون : جانبت التصاونجملة***وأنت عليم بالشريعة قانت
فقلت لهم : هذا الرياءبعينه *** صراحا وربي للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد***وهل منْعه في محكم الذكر ثابت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره ***وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت.»[51]

بهذا العرض اليسير لنظرية الحب عن ابن حزم، يتبين لنا أنه قد أثرى بكتابته هذه، ما ورد في الحب عند مفكري الإسلام وأثبت أنه كفقيه من الفقهاء، كان له اهتمام بهذا الفن. وبمساهمته هذه التي تمثلت في استعراضه لمفهوم الحب وبيان ماهيته وعلله وأشكاله، وإشارته إلى درجاته وعلاماته، ومسائل أخرى متصلة بموضوع الحب والعشق، ممّا يشكل ظواهر هامة في عالم الحب، ليقدم بذلك نظرية متكاملة مازجا فيها بين نصوص القرآن والحديث وبين الفلسفة والمأثور عن علماء الإسلام، مزجا معتمدا على الإستقراء من جهة، وعلى تجاربه الخاصة من جهة أخرى، فلم يترك جانبا من جوانبه إلّا وأشار إليه. فتحدّث عن معاني الحب وأعراضه وظواهره، وشتى آفاته من وجهة نظر المحب لا المحبوب، وهو يلزم المحب

بهذه العاطفة ويعفي المحبوب من كثير من التزاماتها، بما في ذلك الوفاء الذي يوجبه على المحبوب، لأن المحب مخير بين القبول والرفض؛ كما يرى أن (الحب أعمى) فهو يعمي ويصم ويغير طبيعة الفرد، فإذا بالعاقل أهوج يستحسن القبيح، فيصبح الحب مذهبه وطريقه.

ولعلنا لم نشر إلى كل ما كتبه في موضوع الحب؛ كالسلو والهجر والملل، وغير ذلك مما يشكل ظواهر هامة في عالم الحب؛ ليقدم بذلك نظرية متكاملة، مازجا بين الفلسفة والفقه المستنبطة من نصوص القرآن والحديث والمأثور، مازجا بينهما، كما حفل كتابه بالأمثلة الشعرية التي صاغها من أبياته؛ ومن بُنَيّات أفكاره؛ ولكن جاءت سطور النثر في كتابه أكثر شاعرية من شعره، ذلك أنّ تمكُّنه من ناصية اللغة ومعجمه الثري الرقيق، وألفاظه العذبة الباسقة، وبلاغته الراقية السامقة، جعلت عباراته سهلة تكسوها شاعرية تلقائية، في حين جاءت أبياته الشعرية أقرب إلى الشعر التعليمي منها إلى الشعر العاطفي؛ معتمدا على الإستقراء، وعلى تجاربه الشخصية، فاستحق بحقّ لقب:" فيلسوف الحب عند المسلمين".[52] كما أنه لم يقف عند حدود النظرة المثالية الأفلاطونية، ولم يغرق في فلسفة الحب التجريدية إنما اعتمد على الواقع والتجربة وما شاهده من حوادث، وما استقرأه من ظواهر سلوكية؛ ومع أن كثيرين كتبوا قبله وبعده في الحب، إلا أنه قد فاقهم وسبقهم بدقة منهجه، وتسلسل أفكاره وبعد غوصه وترابط أفكار بحثه.

«... حتى أننا نلتقي في تضاعيف دراسته للحب بالكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة، والآراء الفلسفية العميقة، متبعاً في هذه الدراسة منهجي: الإستبطان والإستقراء، فجاءت رسالته حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة والخبرات الحية، والأمثلة التاريخية الصادقة، وهذا ما جعل منها دراسة فذّة...»[53]

ويبقى " طوق الحمامة" علامة بارزة في الفكر الإنساني، بدليل أنه قد ترجم إلى معظم لغات العالم، وأثّر في كثير من الكتّاب والمفكرين الذين أتوا بعده.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

فابن حزم قدم في كتابه أفكارا فلسفية مختلفة عن علامات الحب تعدّ رائدة في هذا المجال، خاصة إذا نظرنا إليها بعيون عشرة قرون مضت؛ حققت فيها الدراسات النفسية والفلسفية إنجازات كبيرة، وظهرت فيها نظريات ومدارس نفسية أكدت كلها صحة ما جاء به ابن حزم، بل وريادته في ما قدمه من خلالها.

كما يمكننا أن نستشف مما سبق أنّ أن أبا محمد حين تحدّث عن الحب، ربطه ربطا وثيقا بالأخلاق والدين، داعيا إلى العفة، متوّجاً رسالته الجميلة في الحب بنصائح أخلاقية، حتى أنه ختم كتابه:" طوق الحمامة " بفصلين هامين عن قبح المعصية وفضيلة التعفف، وأراد أن يكون آخر كلامه في الحب على طاعة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على كل مؤمن، رابطا بين الحب والدين، داعيا إلى العفة. « متوّجا رسالته الجميلة في الحب بنصائح أخلاقية، وكذلك الأمر عند حديثه عن الجمال، فهذا المفكر الأندلسي العظيم كان من أعلم وأفقه الناس بما في فلسفة الحب من خير، وخصوصاً في الفضائل، فليس بدعاً أن نجد ابن حزم يربطه بالدين.»[54] فأثرى بكتابته هذه ما ورد عن الحب عند الفقهاء من جهة والفلاسفة من جهة أخرى؛ جامعا بين نظرة الدين والفلسفة لظاهرة لا تنفك عن الإنسان، أيّ إنسان؛ إنه بحق: فيلسوف من أعظم فلَاسفة الشرق والغرب وإمام من أعظم أئمة الإسلَام في علم الكلَام والفقه.

الهوامش:

[1])-علي سامي النشار:"الأصول الأفلاطونية –المأدبة في الحب الأفلاطوني–" دار الكتب، القاهرة، (ص.337– 341).

2)- سهير فضل الله أبو وافية:" الفلسفة الإنسانية في الإسلام" مكتبة الثقافة ، القاهرة، ط.2006م (ص.148–150)

3)- كالجاحظ في:"العشق والنساء"وإخوان الصفا في:" الرسائل"(231/3)وابن القيم في:"روضة المحبين" .

4)- سعيد الأفغاني:"ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة " المطبعة الهاشمية، دمشق، ط.1940م (ص.96).

5)- طه حسين :" ألوان" دار المعارف ، القاهرة، د.ت.ط (ص.14).

6)- يعد "طوق الحمامة "من أسعد كتب التراث العربي حيث اعتنى به الدارسون والمحققون، فهنالك عشرات الطبعات والدراسات بأقلام كبار المستشرقين، حتى قيل: إن دراسة هذا الكتاب وتحقيقه أصبحت رياضة فكرية لكل باحث.

7)-ابن حزم:" طوق الحمامة" ضمن:"الرسائل" بتحقيق:إحسان عباس، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.2، 1987م (100/1)

8)-ابن حزم:" ديوان الإمام ابن حزم الظاهري" جمع: صبحي رشاد، دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة (ص.97) .

9)-عن ترجمات "طوق الحمامة" إلى الإنجليزية والروسية و... أنظر مقدمة إحسان عباس لـ"رسائل ابن حزم"(20/1).

10)- زكريا إبراهيم:"ابن حزم المفكر الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي" الدار المصرية، القاهرة، ص.31-232).

11)- سعيد الأفغاني :"ابن حزم ورسالته في المفاضلة ..."(ص.73).

12)- مقدمة إحسان عباس لـ"رسائل ابن حزم"(75/1-76) ومحمد أبو زهرة، "الفقيه الذي عالج الحب في رسالته الشهيرة: طوق الحمامة "، **مقال**: بـ"مجلة: "العربي" الكويتية، العدد:57 ، أوت :1963م (ص.28).

13)-ابن حزم:"الرسائل"(93/1- 94).

14)- سورة الأعراف[الآية:189].

[15])-ابن حزم :"رسالة طوق الحمامة " ضمن:"الرسائل" بتحقيق إحسان عباس(96/1-97).

16)- حديث صحيح، رواه البخاري في:"صحيحه" برقم:(3336) ومسلم في:"صحيحه" برقم:(2638).

17)-ابن حزم:" الرسائل "(94/1).

18)- نفسه.(96/1-97).

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

19)- إحسان عباس من مقدمته لـ"رسائل ابن حزم " (29/1).
20)- ابن حزم:"رسالة طوق الحمامة" ضمن:" الرسائل"(90/1)
21)- عبد الكريم خليفة:"ابن حزم الأندلسي... "(ص.221). وصلاح الدين بسيوني رسلان:"القيم في الإسلام بين الذاتيةوالموضوعية " (ص.179-180).
22)- ابن حزم:"الرسائل "(249/1).
23)- نفسه. (98/1-99).
24)-ابن حزم:"الرسائل"(117/1) . "باب من أحب بالوصف"ولكنه بنيان هار على غير أسّ.
25)-نفسه.(117/1-103-118-120-122) وهو ما أشار إليه الجاحظ في:"رسائله" (167/2) وابن القيم في:"روضة المحبين"(ص.68).
26)- DOZZY (R) : " HISTOIRE DES MUSULMANTS D'Espagne" TOME : 2. (P .232).
27)- سعيد الأفغاني:"ابن حزم ورسالته في المفاضلة... "(ص.96-98).
28)- ابن حزم: " رسالة طوق الحمامة " ضمن:"الرسائل"(130/1).
29)- نفسه. (98/1-99).

32) ابن حزم: " رسالة طوق الحمامة " ضمن:"الرسائل" (249/1) " وأما العلة التي توقع الحب أبدا: الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس تولع بكل شيء حسن." "الرسائل" (98/1).
33)- نفسه. (94/1-95).
"34)- نفسه. (129/1).
35)- نفسه.(144/1- 145 - 97-98-125-126) .
36)-"الرسائل"(65/1-448) وابن القيم في: "روضة المحبين"(ص.88-118) و"الجواب الكافي" (ص.164).
37)- ابن حزم: "رسالة طوق الحمامة" ضمن: "الرسائل" (134/1) و (103/1- حتى 114) ولسالم يفوت مقال: "الأسس الميتافيزيقية لنظرية الحب لدى ابن حزم" مجلة: "تكاملية المعرفة" صادرة عن جمعية الفلسفة المغربية، عدد (7و8) سنة:1982-1983م (ص.12- 32).
38)- ابن حزم:" الرسائل" (103/1-104-105).
39)- نفسه. (106/1-107).
40)-زكريا إبراهيم:"ابن حزم الأندلسي المفكر..."(ص.245) وفاروق سعد في مقدمته: لـ"طوق الحمامة" دار الحياة، بيروت (ص.39).
41)-ابن حزم :"الرسائل "(130/1).
42)- سعيد الأفغاني:" ابن حزم ورسالته في المفاضلة..." (ص.78).

43)- ابن حزم: "الرسائل"(369/1).

44)-نفسه.(372-369-96-95/1) وقد عقد طه حسين أوجه مقارنة بين ماذكره ابن حزم والأديب الفرنسي ستندال حول ماهية وأنواع الحب مؤكداً تشابههما. ينظر كتابه: "ألوان" (ص.61-108-110).

45)- نفسه (125/1). وهذه الفكرة تذكرنا برأي أفلاطون، من أن الحب والجمال والفضيلة لا تتقوى إلّا بالممارسة الدائبة والدائمة والطويلة.

46)- ابن حزم:" الرسائل" (105/1).

47)- ابن حزم: "الرسائل" (154-153/1) وأيضا (295-244-230-205/1)

48)- حامد الدباس: "فلسفة الحب والأخلاق..." (ص.176-177).

49)- ابن حزم: "الرسائل" (90/1)

50)- سعيد الأفغاني: "ابن حزم ورسالته في المفاضلة..." (ص.97).

51)- ابن حزم "الرسائل" (145/1)

52)- سهير أبو وافية: "الفلسفة الإنسانية في الإسلام" (ص.174–183) وعبد الكريم خليفة:"ابن حزم"(ص.199)

53)-زكريا إبراهيم:" ابن حزم المفكر الموسوعي ... " (ص.232-257)

54)-نفسه. (ص.266-267)

55)- محمد عبد الله عنان: " مجلة: العربي " مقال: " ابن حزم الفيلسوف الأندلسي " العدد: 68، السنة: 1964(ص.80).

56) زكريا إبراهيم:" ابن حزم المفكر الموسوعي ... " (ص.266- 267)

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن حزم :- "ديوان الإمام ابن حزم " جمع: صبحي رشاد ، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر ،ط$_1$ ،1990م.

:-"الرسائل" تحقيق: إحسان عباس، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت(ط.$_1$/1983م)و(ط.$_2$/1987م).

:-"طوق الحمامة في الألفة والألاف" تحقيق: فاروق سعد، دار الحياة بيروت.

:-"طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف" تحقيق: عبد الحق التركماني، دار ابن حزم بيروت،ط،2002م

- أبو وافية، سهير: "الفلسفة الإنسانية في الإسلام"، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2006.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

- الأفغاني، سعيد:-"ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة" المطبعة الهاشمية، دمشق ط. 1940م.
-التكريتي، ناجي:-"الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام" دار الأندلس بيروت ط.1982م
- خليفة، عبد الكريم :- "ابن حزم الأندلسي ، حياته وأدبه" دار العربية للنشر، بيروت.د.ت.ط.
_ الدباس، حامد:-"فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم"، دار الإبداع للنشر، عمان ط1993م.
- زكريا، إبراهيم:"ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي" الدار المصرية، القاهرة، 1966
:- "مشكلة الحب" دار الآداب، بيروت، ط، 1963م.

المجلات

- " تكاملية المعرفة"، مقال:" الأسس الميتافيزيقية لنظرية الحب لدى ابن حزم" سالم يفوت، عدد: (7و8) 1982م (ص.12)
- "العربي"، مقال:"الفقيه الذي عالج الحب في: طوق الحمامة" محمد أبو زهرة، العدد:57، أوت: 1963م (ص24).
- "الفيصل"، مقال:"بين الحصري وابن حزم فيما ذكراه عن الحب وفلسفته"محمد الرويشد، العدد:10،السنة:1948م (ص.16).